وهنا تساؤلات عدة حول هذه الآية، منها ما هي الملكوت، وأخرى ألم يكن إبراهيم قبل هذه الرؤية من الموقنين بالله، وإذاً فكيف كان يؤنب أباه وقومه بشركهم أنهم في ضلال مبين، وثالثة بماذا يعطف العاطف في ﴿وَلِيَكُونَ . . .﴾ ولا معطوف عليه ظاهراً يعطف عليه؟.

قد يكون المعطوف عليه «ليحتج على المشركين» كأصل في حجاجه ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ الأولين في تلك الإراءة الملكوتية، إيقاناً فوق إيقان فإيماناً فوق إيمان، حيث الإيقان فالإيمان درجات حسب درجات رؤية الملكوت، فما أريه إبراهيم من الملكوت له جانبان اثنان ثانيهما وهو الأعمق ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ والأوّل وهو الممكن تفهمه لمتحري الحق فقر الكائنات كلها إلى ربها، ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ الرساليين وهم أفضل الرسل والنبيين، لا كلّ الموقنين بل الموقنين القمة كإبراهيم عليه السلام.

ذلك، ولرؤية الملكوت خلقياً - وهي مفروضة على كلّ السالكين إلى الله - درجات، رؤية الفطرة، ورؤية العقلية الإنسانية على ضوء الفطرة والرؤية الحسية والعلمية، ورؤية بالوحي يكملها كلها، كما ولكلّ درجات، فليست رؤية الملكوت - إذاً - نسقاً واحداً وشكلاً فارداً، ومن ثم رؤية خالقية ربانية علمياً وقيومياً خاصة بالله.

والنظرتان الأوليان إلى ملكوت السماوات والأرض هما المفروضتان على كافة المكلفين، ذوي الفطر والعقول، والأبصار والبصائر، وقد يندد بمن لا ينظر بها إلى الملكوت: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ . . .﴾[1] وهذه هي الملكوت العامة التي يجب النظر إليها بعين الفطرة والعقلية الإنسانية، بعين البصر ثم البصيرة.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.

وهذه الرؤية لا تتجاوز علماً مّا بماهية الكون من تعلقه بالله، فلا إله إلّا الله، ثم هناك رؤية علمية وقيومية تختص بالله وهي رؤية أخص الخاص: ﴿فَسُبْحَانَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[١] ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾[٢].

هذه وتلك ملكوتان بينهما بون كبير، ثم بينهما وسيطة تختص بإراءة الوحي، وهي رؤية الخاص، كرؤية إبراهيم ملكوت السماوات والأرض[٣] فإيقانه أيضاً هو المناسب لرؤيته، إيقان بعصمة ربانية ليس كسائر الإيقان الحاصل بفطرة وعقلية إنسانية مهما بلغت ما بلغت من قممها، فإنها ليست لتصل إلى عصمة طليقة تحصل بإرادة الله، المعبَّر عنها ببرهان الرب:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ﴾[٤] اللهم إلّا كنموذج تصديقاً لرؤية الملكوت[٥] وبقدر ما يتقي العبد ربه يُرزق رؤية للملكوت،

---

(١) سورة يس، الآية: ٨٣.

(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ٨٨، ٨٩.

(٣) نور الثقلين ١: ٧٣٢ عن هشام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كشط له عن الأرض ومن عليها وعن السماء ومن فيها والملك الذي يحملها والعرش ومن عليه وفعل ذلك كله برسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام وفيه عن كتاب الاحتجاج حديث طويل عن النبي صلى الله عليه وآله يقول فيه: يا أبا جهل أما علمت قصة إبراهيم الخليل عليه السلام لما رفع في الملكوت وذلك قول ربي ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ . . .﴾ [الأنعام: ٧٥] قوى الله بصره لما رفعه دون السماء حتى أبصر الأرض ومن عليها ظاهرين ومستترين».

(٤) سورة يوسف، الآية: ٢٤.

(٥) نور الثقلين ١: ٧٣٠ في كتاب المناقب لابن شهرآشوب جابر بن يزيد قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ . . .﴾ [الأنعام: ٧٥] فرفع أبو جعفر عليه السلام بيده وقال: ارفع رأسك فرفعته فوجدت السقف متفرقاً ورمق ناظري في ثلمة حتى رأيت نوراً حار عنه بصري فقال: هكذا رأى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض، وانظر إلى الأرض ثم ارفع رأسك فلما رفعته رأيت السقف كما كان ثم أخذ بيدي وأخرجني من الدار وألبسني=

ولكنها على أية حال ليست إلّا دون العصمة الرسولية والرسالية في هذه الرؤية، وكما يروى عن النبي ﷺ قوله: «طوبى للمساكين بالصبر وهم الذين يرون ملكوت السماوات والأرض»[١] وقال ﷺ: «لولا تكثير في كلامكم وتمريج في قلوبكم لرأيتم ما أرى ولسمعتم ما أسمع» وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «لولا أن الشياطين يحمون حول قلوب بني آدم لرأوا ملكوت السماوات والأرض».

وهنا في إرادة إبراهيم ملكوت السماوات والأرض نتائج عدة رسولية ورسالية، أهمها المذكور هنا: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ فإنه المحور الأساس في بناء الرسالة رسولياً ورسالياً.

وهذه الإراءة لإبراهيم - هنا - الخاصة بمعرفة الله كما تناسب محتده، تثنى في أخرى هي الإيقان بحقيقة المعاد: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ...﴾[٣] وقد كان موقناً أنه تَحيى الموتى، ولكنه هنا يتطلب الإيقان بـ﴿كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾ إيقاناً معرفياً بفعل الرب على قدر دون كلّ الأقدار الخاصة بالله فإبراهيم الخليل كان عارفاً ربه الجليل «من قبل» وعلَّه منذ ولاده:

= ثوباً وقال: غمض عينيك ساعة ثم قال: أنت في الظلمات التي رأى ذو القرنين ففتحت عيني فلم أر شيئاً ثم تخطى خطاً فقال: أنت على رأس عين الحياة للخضر ثم خرجنا من ذلك العالم حتى تجاوزنا خمسة فقال: هذا ملكوت الأرض قال غمض عينيك وأخذ بيدي فإذا نحن بالدار التي كنا فيها وخلع عني ما كان ألبسنيه فقلت جعلت فداك كم ذهب من اليوم؟ فقال: ثلاث ساعة.

(١) نور الثقلين ١: ٧٣٣ عن الكافي علي بن إبراهيم عن أبيه عن النوفلي عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال النبي ﷺ...

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾[1] والحجة التالية عرض لموقف الفطرة والعقلية السليمة بمعرض قومه المشركين، نبهة لهم لعلَّم يذّكّرون.

أجل ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ﴾ إراءَة متواصلة لا انقطاع لها، ولأنها أصل العصمة الربانية لإبراهيم الخليل، فلا تعني ﴿نُرِىٓ﴾ إراءَة لاحقة، ولا - فقط - حكاية حال ماضية، بل هي إرادة استمرارية طول عمره ولا سيما في طائل أمره الرسالي، إراءة تحلق على كيانات العصمة رسلاً وأئمة يخلفونهم، ولا سيما محمد ﷺ والمعصومون من عترته عليهم السلام[2].

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بما فيهما من أصنام وأوثان وطواغيت وسواها من الكائنات، فإن رؤية حق الخلق وحاقِّه رؤية لحق فعل الخالق قَدرَها، مهما كانت الرؤية الطليقة خاصة بالله، فلا يعرف نفسه كما هو إلّا هو، ثم من يعرِّفه نفسه بما يُريه من ملكوت خلقه، فإن ملكوته نفسه لا ترى إلّا لنفسه، وكما يروى عن أوّل العارفين والعابدين: «ما عرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادتك».

---

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٥١، ٥٢.

(٢) المصدر في الخرائج والجرائح عن ابن مسكان قال: قال أبو عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ . . .﴾ [الأنعام: ٧٥] قال: كشط الله لإبراهيم السماوات حتى نظر إلى ما فوق الأرض وكشطت له الأرض حتى رأى ما تحت نجومها (تخومها) وما فوق الهوى، وفعل بمحمد ﷺ مثل ذلك وإني لأرى صاحبكم والأئمة من بعده فعل بهم مثل ذلك، وسأله أبو بصير هل رأى محمد ﷺ ملكوت السماوات والأرض كما رأى ذلك إبراهيم عليه السلام؟ قال: نعم وصاحبكم والأئمة من بعده».
وفيه عن كتاب الخصال عن يزداد بن إبراهيم عمن حدثنا من أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال سمعته يقول قال أمير المؤمنين عليه السلام والله لقد أعطاني الله تبارك وتعالى تسعة أشياء لم يعطها أحداً قبلي خلا النبي ﷺ: «فتحت لي السبل وعلمت الأسباب وأجري لي السحاب وعلمت المنايا والبلايا وفصل الخطاب ولقد نظرت في الملكوت بإذن ربي جل جلاله فما غاب عني ما كان قبلي وما يأتي بعدي». . . .

صحيح أن رؤية الفطرة الأصيلة، غير المحجوبة، هي أصل الرؤية، ثم رؤية العقل الذي يتبنّاه هي فصل الرؤية عن إجمالها، ولكنها مع رؤية العلم والحس لا تكفي عصمة طليقة في أصل الرؤية وفصلها، اللّهم إلّا قدر ما كلف العباد بما وهبوا من طاقات للمعرفة، و«لولا أن الشياطين...».

فإبراهيم الخليل هو من أولئك المعصومين الأكارم الذين أراهم الله ملكوت الكائنات بأسرها كما يمكن لمخلوق، مهما كانت هذه الإرادة أيضاً درجات، من علم اليقين إلى عين اليقين وإلى حق اليقين، كما ولكلٍّ درجات.

ولأن صور الرؤية الملكوتية للكون والمكون درجات، فقد رأى محمد ﷺ ربه في أحسن صورة[1] رؤية معرفية بقلبه وكما رأى من آيات ربه الكبرى ببصره وبصيرته في معراجه ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾[2].

ولأن ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ﴾ تحمل إراءَة دائمة لإبراهيم وهذه الحجة طرف من أطرافها فليست ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ تصديقاً ولا شكّاً فإنهما ينافيان الإيقان دون العصمة فكيف يجتمعان مع إيقان العصمة؟، كما وأن ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ

(١) في الدر المنثور أخرج أحمد وابن جرير وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن عبد الرحمن بن عائش الخضرمي عن بعض أصحاب النبي ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: رأيت ربي في أحسن صورة فقال: فيم يختصم الملاء الأعلى يا محمد! قلت: أنت اعلم أي رب فوضع يده بين كتفيَّ فوجدت بردها بين ثديي قال فعلمت ما في السماوات والأرض ثم تلا هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ...﴾ [الأنعام: ٧٥].
أقول: «صورة» هنا هي كما تناسب رؤية الرب وهي الصورة العليا المعرفية، ويده تعالى هي يد الإراءة للملكوت، فأين صورة من صورة وإراءة من إراءة؟

(٢) سورة النجم، الآيات: ١٣-١٨.

﴿إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾[١] دليل أنها من إراءَة الملكوت، ولم تكن حجة على نفسه، لسابق توحيده وسابغة.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾:

موقف حاسم جازم من مواقف حجاجه على المشركين في حفلة سماوية، فلئن قضي على ألوهية آلهة السماء - التي هي الأصيلة عند عبدتها، وأصنام الأرض ليست إلّا ممثلة لها، كما هي تمثل إله السماوات والأرض - فهو القضاء بأحرى على آلهة الأرض.

ذلك وكما له موقف آخر في حفلة أرضية مع آلهة الأرض ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾[٢]، وكذلك مواقف أخرى تثبيتاً لوحدة الإله ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾.

في ذلك الحجاج نرى حسماً لألوهية النجم والقمر والشمس، مما يدل على أن الخليل يُحاج هنا عبدة الأجرام السماوية؛ ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ وهو أوّل ظاهرة من الكواكب بداية الليل، فهي الزهرة ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ على الإنكار والاستخبار»[٣] لا التصديق والإخبار أو سؤال الإنكار،

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨٣.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٥٨.
(٣) نور الثقلين ١: ٧٣٥ في عيون الأخبار في باب ذكر مجلس الرضا عليه السلام عند المأمون في عصمة الأنبياء وبسند متصل عن علي بن الجهم قال حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليه السلام فقال له المأمون يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أليس من قولك أن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، قال: فأخبرني عن قول الله تعالى في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٦] فقال الرضا عليه السلام: إن إبراهيم صلى الله عليه وقع على ثلاثة اصناف صنف يعبد الزهرة وصنف يعبد القمر وصنف يعبد الشمس وذلك حين خرج من السرب الذي أخفى فيه ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ [الأنعام: ٧٦] رأى الزهرة قال هذا ربي على الإنكار والاستخبار، فلما أفل الكوكب ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] لأن الأفول =

بل على المجاراة في الحجة التي توغل الخصم في الحجة، كيف وقد أُري ملكوت السماوات والأرض، ورمى أباه آزر وقومه المشركين من قبل بضلال مبين، ومن بعد ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ دون «برئت» أو مما تشركِ، ثم ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ دون «ولا أشـرك» ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ. . .﴾ إنه غاب في نفسه وغاب عن الخلق.

فمن ذا الذي يرعى مربوبية إذا كان الرب يغيب، لا - إنه ليس رباً حيث الرب لا يغيب، وإنه منطق الفطرة بعيداً عن الجدليات المنطقية والفلسفية المصطلحة، منطق يفهمه كلّ ذي فطرة سليمة.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾:

وهذا هو شأن المتحري عن ربه الذي عرفه بفطرته وعقليته أنه الوجود الطليق الذي لم يزل ولا يزال فلا أفول له ولا أية حركة، فلإنه يعرف ربه يسأله ملتمساً في تحريه ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الذين ضلوا عن ربهم في التيه، ضلالاً عن ميثاق الفطرة[1].

= من صفات المحدث لا من صفات القديم ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٧] على الإنكار والاستخبار فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، يقول: لو لم يهدني ربي لكنت من القوم الضالين فلما أصبح رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر من الزهرة والقمر على الإنكار والاستخبار والإقرار فلما أفلت قال للأصناف الثلاثة من عبدة الزهرة والقمر والشمس ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٨-٧٩] وإنما أراد إبراهيم بما قال أن يبين لهم بطلان دينهم ويثبت عندهم أن العبادة لا تحق لمن كان بصفة الزهرة والقمر والشمس وإنما تحق العبادة لخالقها وخالق السماوات والأرض وكان ما احتج به على قومه ألهمه الله وآتاه كما قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣] فقال المأمون: «لله درك يا الحسن».

(١) نور الثقلين ١: ٧٣٦ في تفسير العياشي عن أبي عبيدة عن أبي جعفر عليه السلام في قول إبراهيم =

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾:

فلأن هذا أكبر فعلَّه لا يأفل كما أفل صاحباه ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾ ثم لم يجد أكبر منها فاستأصل - إذاً - في ذلك الحجاج ربوبية أجرام السماء ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أنتم بالله ولست أنا منكم.

وعلّ ﴿هَٰذَا﴾ هنا بدل «هذه» رعاية لـ﴿رَبِّي﴾ ورعاية لهم تماشياً منهم في ربوبية الشمس فقد عنى ﴿هَٰذَا﴾ الكائن النير ﴿رَبِّي﴾.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾:

﴿إِنِّي﴾ متأكداً دون ارتياب ﴿وَجَّهْتُ﴾ منذ عرفت نفسي لا فحسب من الآن ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ بكلّ وجوهه واتجاهاته ﴿لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ حيث المحدودية والأفول دليل الانفطار، والفطرة المتحرية عن الله لا يصدق محدوداً آفلاً أنه هو الله، فكما الفطرة تتحرى عن الفاطر غير المنفطر، كذلك الخلق المنفطر دليل على الفاطر غير المنفطر، تجاوباً بين كتابي الآفاق والأنفس في توحيد الله.

وهنا ﴿فَطَرَ﴾ لمحة لامعة إلى قضية دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وأنها تحكم بانفطار الآفلين، فانفطار المنفطرين دليل فطر الفاطر وما أحسنه دليلاً! فقد فطر الله الإنسان على معرفته، وفطر الكائنات دليلاً على ربوبيته، وهي كلها آياته: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ . . .﴾[1].

= صلوات الله عليه: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧] أي: ناسياً للميثاق ورواه مثله عنه عليه السلام مسعدة.

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

فإبراهيم الخليل يصوِّر هنا في حجاجه صورة التحري عن ربه في مظهر الشاكِّ بديلاً عمن كانوا يعبدون هذه الإجرام، فـ ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ هي من مقالتهم وهو ينقلها لينقلهم منها إلى الذي فطر السماوات والأرض.

فمهما كانت ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ إشراكاً ممن يعتقده، «فلم يكن من إبراهيم شرك وإنما كان في طلب ربه وهو من غيره شرك»(١) «وإنه من فكر من الناس في مثل ذلك فإنه بمنزلته»(٢).

فالشك المتحري عن يقين هو شكٌ مقدَّس فيعتبر من الإيمان، والشك المدنس هو الجامد الجاحد دون أي تحرٍ إلّا تجرياً على الحق المرام.

ثم إن هذه الطريقة هي أقرب إلى الدعوة والإنصاف في الحجاج، وأبعد عن الشغب والاعتساف، وليس كذباً محرماً لأنه في مقام الإصلاح والإفصاح عن الحق المرام، ثم وقصد الاستنكار وإن لم يظهر يخرجه عن الكذب إلى التورية حيث ورَّى بصورة الإخبار والقصد هو الاستنكار.

ثم وهذه الأفولات الثلاث كانت براهين على بطلان ثالوث الربوبية للنجم والقمر والشمس بحكم الفطرة الحكيمة الحاكمة في كلِّ قليل وجليل.

فلأن الفطرة تحب الكمال المطلق حباً في حقل الربوبية، ولا تجد مطلوبها في هذه الكائنات، فليكن مطلوبه خارجاً عن عالم الحس والحيطة العقلية.

فإبراهيم المتحري عن ربه في مجالة الحوار، لمَّا لا يجده في كوكب

---

(١) نور الثقلين ١: ٧٣٧ من تفسير القمي وسئل أبو عبد الله عليه السلام عن قول إبراهيم: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦] أشرك في قوله: هذا ربي؟ فقال: لا. بل من قال هذا اليوم فهو مشرك، ولم يكن...

(٢) المصدر ٧٣٨ في تفسير العياشي عن محمد بن مسلم عن أحدهما عليه السلام قال في إبراهيم عليه السلام إذا رأى كوكباً قال: إنما كان طالباً لربه ولم يبلغ كفراً وأنه من فكر...

يلمع ولا في قمر يطلع، ولا في شمس تسطع، فبأحرى لا يجده فيما دون هذه المشرقات مهما شرَّق وغرَّب، فهو واجده في فطرته أنه لا حدَّ له ولا أفول، فليس هو ما لَه حد وأفول.

وهكذا يلقي إبراهيم عصاه في حران بين عبدة الأصنام عساه يجد آذاناً مصغية وعقولاً ناضجة غير معقولة بطوع الهوى، فاختار لرشدهم حجاج التجاوب بين الفطرة والعقل والإحساس، ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ وستره ظلامه «رأى» كوكباً «مما كانوا يعبدون»، فجاراهم في زعمهم دون مجابهة علنية، حاكياً مقالهم ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ كأنه صلوات الله عليه منهم ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: ناسياً للميثاق طريق في الحوار طريف حكيم، ومنهج في الحجاج قويم، وهذه أدعى إلى إنصاتهم لمقالته فإنها مقالتهم، ثم كرَّ على المقالة من طريق خفي ينبئ عن سداد رأيه ونفاذ بصيرته، فلما أفل هذا الكوكب تحت الأفق فتفقَّده فلم يجده، وبحث عنه فلم يره قال ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ فكيف يكون الإله آفلاً غافلاً عن خلقه، فذاتية الأفول دليل على ذاتية الحاجة والحدوث، والفطرة الإنسانية تتطلب إلهاً لا يأفل ولا يغفل، بل هو إله لا أزلي أبدي لا أوَّل له ولا آخر وهو الأول والآخر.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ وهو أسطع نوراً من ذلك الكوكب ومن كلِّ كواكب السماء، وأكبر منه حجماً ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ تدرجاً في تحريه إلى الحق المُرام وهو الكمال المطلق ومطلق الكمال، استدراجاً لهم واستهواء لقلوبهم تمشياً بأقدام الفطرة في تحريها ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ هذا الأنور والأكبر كما الأصغر ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ عما فطرهم عليه من معرفة اللَّامحدود، تبياناً أن الله هو مصدر الهدى ومانح التوفيق لها عن الردى ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ يتألق نورها وينبعث منها شعاعها وقد كست الأفق